

اللغة العربية في اطار اللغات السامية (1)

بقلم : فولف ديترش فيشر
(W.D. FISCHER)

للغات السامية خصائص لغوية مشتركة ، وقد طورت كل لغة منها وجهها أو آخر من هذه الخصائص بشكل ما ، « وطورت العربية الخصائص الأصلية في أحسن صورة وأكملها » . هكذا يحدد العالم المشهور كارل بروكلمان موقف اللغة العربية بين اللغات السامية الأخرى في كتابه (الأساس في النحو المقارن للغات السامية) الذي صدر سنة 1908 .

وقد بنى بروكلمان رأيه هذا على اعتبار أن العربية تمتاز على أخواتها كالعبرية والآرامية والأكدية والحبشية في أنها حافظت على الأصول اللغوية السامية المشتركة على نحو لا نجد في غير العربية بنفس القدر ، فيعتبر معظم دارسي اللغات السامية العربية اللغة السامية الأكثر أصالة بينما اختفى كثير من الملامح الأصلية من أخواتها ، وأهم النقاط التي تمتاز العربية بها وتقرر أصالتها هي النقاط التالية :

(1) كمالها في مجال الفونيمات (أي بعبارة تقليدية الحروف والحركات) .

(1) محاضرة ألقاها المستشرق الألماني الدكتور فيشر في غضون العام الماضي أمام طلبة قسم العربية بكلية الآداب .

(2) وجود الاعراب فيها ، وهو ظاهرة نحوية قد ضاعت من أغلب اللغات السامية غير الاكادية والاوجاريتية والعربية .

(3) أصالتها في مجال تركيب الجملة ، حيث تحتوى على كثير من خصائص تركيبية غير موجودة في اللغات السامية الأخرى على حد سواء ، ومن ذلك الفرق بين الجملتين الاسمية والفعلية على وجه الخصوص .

(4) ثروتها اللفظية وأصالة ألفاظها : اشتقاقا ودلالة ، ولذا كان الباحثون في مجال اللغات السامية لمدة طويلة يعتبرون المعجم العربي مرجعا لفهم اللغات السامية الأخرى خاصة اللغات القديمة مثل الاكادية والفينيقية والاوجاريتية التي كانت لغات غير معروفة على الاطلاق قبل أن يعثر الباحثون على النقوش المكتوبة بها وقبل أن يأخذوا في ادراك معناها .

لقد مضى أكثر من سبعين عاما على رأى بروكلمان المذكور عن مرتبة اللغة العربية في الأسرة اللغوية السامية ، بيد أن البحث في هذه اللغات لم يتوقف أثناء تلك الفترة ، فقد اكتشفت أثناءها لغات سامية لم تكن معروفة في بداية هذا القرن ، وازدادت معرفتنا باللغات السامية ، وكلما كان علينا أن نعيد النظر في الحكم على العربية بالنسبة للغات السامية ، ونسأل : هل حافظت العربية على منزلتها كلغة سامية أكثر أصالة بين أخواتها في ضوء الاكتشافات الجديدة في هذا الميدان ؟

ان اللغات السامية تنقسم إلى ثلاثة أفرع – وعلى هذا تنفق أغلبية العلماء رغم اختلافاتهم في التفاصيل – وهذه الفروع هي :

(1) الفرع الشرقي أو بعبارة أخرى الفرع الشمالي الشرقي ، ويحتوي على البابلية والاشورية اللتين يجمعهما اسم الاكادية ، ويسمى هذا الفرع بالشرقي لأن المناطق التي كانت الاكادية منتشرة فيها هي العراق والجزيرة ، ويغلب الظن أن لغة ابلة المكتشفة حديثا عند حفريات توجد في تل مردوخ

القريب من حلب تنتمي إلى هذا الفرع أيضا ، فلا يعود اسم الفرع الشرقي صالحا له ، ويسميه بعض العلماء بالفرع الشمالي الشرقي ، وتعد هذه اللغات أقدم اللغات السامية المعروفة ، وترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد .

(2) الفرع الغربي أو بعبارة أخرى الفرع الشمالي الغربي ، ويحتوي على اللغات المنتشرة في سوريا وفلسطين قبل انتشار العربية بها ، وتنتمي إليه الكنعانية التي منها العبرية والفينيقية والآرامية التي قد تفرع منها كثير من اللهجات مثل السريانية والنبطية ، وبدأ أقدمها في القرن الثامن قبل الميلاد واستمرت الآرامية دارجة في بعض المناطق إلى وقتنا هذا ، وتنتمي إلى هذا الفرع أيضا الأوجاريتية ، وهي لغة سامية قديمة اكتشفت سنة 1929 م .

(3) الفرع الجنوبي الذي يحتوي على اللغات المتأصلة في الجزيرة العربية وهي : اللغة العربية والحميرية والحبشية . أما الحميرية فكثيرا ما تسمى بالعربية الجنوبية حيث أنها تشبه من ناحية العربية التي كانت أصلا لغة قبائل نجد والحجاز إلا أن انتشارها من ناحية أخرى كان مقصورا على اليمن ، ودونت النصوص الحميرية أو العربية الجنوبية برموز المسند ، وأما اللغة الحبشية فترجع إلى الأصل العربي الجنوبي ، إذ حمل المهاجرون من مملكة سبأ اليمنية القديمة لغتهم العربية الجنوبية معهم إلى بلاد الحبشة ، وتدل على ذلك النقوش المكتوبة بهذه اللغة ، وقد نقشت في بلاد الحبشة ما بين القرنين الثاني والثالث قبل الميلاد ، ثم انتشرت تلك اللغة العربية الجنوبية أصلا وأخذ الأقباش المسيحيون يترجمون كتبهم المقدسة إلى هذه اللغة التي يسمونها « الجعز » .

ولوصف منزلة العربية بين هذه اللغات السامية الأخرى يحسن بنا أن نتطرق إلى أقدمها وهي الأكادية والأوجاريتية . فالأكادية من أقدم اللغات المدونة بواسطة الكتابة أيضا فضلا عن اللغة المصرية الفرعونية ، وكان أول من حمل صورة نقش من النقوش الأكادية معه إلى أوروبا الرحالة الدانمركي كارستن نيبور (Carsten Niebuhr) الذي زار سنة 1765 المدينة الإيرانية

(اصطخر) حيث عثر على ثلاثة نقوش قام بنسخها ، تلك التي أصبحت فيما بعد أساسا لحل الرموز الكتابية الملتبسة المسماة بالخط المسماري . ومع أن أحد العلماء الألمان في بداية القرن التاسع عشر قد نجح بعض النجاح في حل تلك الرموز المسمارية الا أن الأكاديمية ظلت لغة غامضة على مدى أكثر من مائة عام ، ولم يتغير الحال إلا بعد العشرينات من هذا القرن حيث تقدمت المعرفة بالأكاديمية تقدما عظيما ، وإن لم يرفع الستار عن كل أسرارها .

ونعلم الآن أن أقدم الكتابات الموجودة باللغة الأكاديمية ترجع إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وبقيت الأكاديمية دارجة حتى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد ، ولم توجد كتابات أكاديمية مدونة بعد ذلك العصر الا نادرا جدا ، واستمرت حياة تلك اللغة أكثر من ألفي سنة . ومن البديهي أنها تطورت وتغيرت خلال تلك المدة الطويلة بشكل أو بآخر . وبناء على نتائج البحوث التي قام بها علماء اللغة في الثلاثينات نستطيع أن نفرق بوضوح بين الاشورية والبابلية : للهِجَتين أو اللغتين اللتين تطورتا عن الأكاديمية في بداية الألف الثاني قبل الميلاد كما نستطيع أن نفرق بين عدة مراحل لتطور كل واحدة منهما :

أما المرحلة الأولى للأكاديمية فبدأت في القرن الخامس والعشرين تقريبا الا أنه ليس لدينا من الكتابات الأكاديمية المدونة في ذلك التاريخ الغابر سوى القليل . ولم يثبت علماء اللغة في هذه اللغة العتيقة اختلافات لهجية ، ولذلك يسمونها بالأكاديمية العتيقة . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى مدينة (أكاد) عاصمة سارجون : الملك الكبير الذي حكم فيما بين النهرين في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ، وذلك أمر معروف ، الا أننا لا نعرف حتى الآن في أي مكان كانت تقع هذه المدينة .

واستمرت المرحلة الأولى التي تسمى لغتها بالأكاديمية العتيقة من منتصف الألف الثالث حتى سنة ألفين تقريبا ، وأخذت بعدها تتصدع اللغة الأكاديمية

الموحدة، فنشأت عنها اللغتان اللتان ظلت الاكادية مشتمة عليهما حتى اندثارها في القرون الأخيرة قبل الميلاد وهما الاشورية والبابلية ، ولكل منهما مراحل من التطور ، فيميز عارفو الاكادية بين الاشورية القديمة والاشورية الوسطى والاشورية الحديثة ، كما يميزون بنفس الطريقة بين البابلية القديمة والوسطى والحديثة .

ورغم أن هذه اللغات قد اختلفت منذ أكثر من ألفي عام الا أن عدد الألواح المكتوب عليها بالاشورية أو البابلية المحفوظة يزيد على مائة ألف لوح ، وكثير من الألواح ملقى في مخازن المتاحف ولم يطلع عليها أحد بعد أن نقب عنها علماء الآثار واستخرجوها من الأرض ، وكثيرا ما يعثرون على ألواح جديدة عند حفرهم . ولم يقتصر العثور على تلك الألواح في العراق فحسب وإنما في سوريا وفلسطين وتركيا وإيران وحتى في مصر وبلاد الأرمن أيضا ، إذ أن الاكادية كانت تستخدم في بلاد الشرق كلها كالغة للمكاتبة التجارية والدبلوماسية في ذلك الزمن .

ليس هنالك من شك في أن الاكادية التي استمرت حياتها أكثر من ألفي عام هي من أهم اللغات بالنسبة لدراسة اللغات السامية والتاريخ القديم لبلاد الشرق ، بيد أن عدد دارسيها من العلماء قليل جدا ، ويرجع السبب في هذا إلى أن نظام الكتابة الاكادية معقد للغاية فقد أخذ أبناء الاكادية نظام الكتابة هذا من السومريين ، وهم قوم أجانب أي ليسوا ساميين ، دخلوا ما بين النهرين — على أرجح الآراء — قادمين من الهند ، وكان نظامهم الكتابي صالحا للسومرية ولم يكن صالحا لأي من اللغات السامية . لقد كانت تلك الرموز أصلا صورا شبيهة بالأشياء التي تشير الصور إليها ثم تغير شكل هذه الصور فاصبحت تشبه الرموز المسامير حيث كان الكاتب يضرب الرمز على اللوح الفخاري بواسطة اداة تشبه المسمار ولذا سمي هذا الخط باسم الخط المسماري الاكادي . وأما من حيث النظام فيسمى بالخط المقطعي لأن الرمز الواحد لا يعبر عن صوت

واحد - الأمر الذي اعتدنا به بالنسبة للأبجديات الحديثة - بل عن مقطع تام أو كلمة تامة ، ويرجع ذلك إلى تلك الصور الأصلية التي كانت تشير إلى الأشياء والكلمات الدالة عليها ، فالرموز المسمارية التي تشير إلى مقطع تعبر إما عن مقاطع ساكنة مثل : تَنَ وَلَسَمَ وَتَكَ وَدِسْ وغيرها وإما عن مقاطع متحركة مثل بَ وبُ وبِ وَتَ وَتْ وَتِ . وهناك نوع آخر من الرموز دال على مقاطع تجيء فيها الرموز الحركة قبل الصامت مثل أَبْ وإِبْ وأُبْ وغيرها، وكثرة الرموز هذه ضرورية لأن يعبر الكتاب الاشوري أو البابلي عن جميع المقاطع الموجودة في لغته أو في لغة أخرى .

وعندما يكتب كلمة مثل (شَمَشُم) - وتقابلها في العربية كلمة شمس - يحتاج إلى أربعة رموز شَ وَا مْ وُشْ وَا مْ .

ويضاف إلى كثرة الرموز اللازمة للتعبير عن المقاطع الموجودة في اللغة أن للكتابة الأكادية رموزا تعبر عن كلمة تامة وهي التي تسمى بالرموز المعنوية حيث أنها تدل على المفهوم بغض النظر عن اللفظ ، فحين نرسم رمزا معناه (السنة) يجوز عند القراءة أن نقول (السنة) أو العام أو الحول لأن معناها جميعا واحد .

إن دارس اللغة الأكادية تواجهه صعوبات أخرى يتعلق بعضها بالنظام الكتابي أيضا ، فقد تغيرت أشكال الرموز من عصر إلى عصر ، ولذلك فعلى من يريد تعلم الأكادية أن يحصل على المعرفة بأشكال مختلفة لكل الرموز الموجودة ، ولكن لهذا النظام الكتابي رغم صعوبته وتعقيدته نفع كبير : فهو يخبرنا عن نظام الحركات ، وهذا ما لا يستطيع أن يحققه الخط الأبجدي الذي دونت به الفينيقية أو الآرامية وغيرهما من اللغات السامية ، ولذلك فإننا لسنا على علم بما إذا كانت الفينيقية لغة ذات اعراب ، فالخط الفينيقي لا يعبر عن الحركات في حين أننا نعرف وجوده بالتأكيد في اللغة الأكادية حيث يفيدنا

الخط الاكادي المقطعي بأن للاسم اعرابا على نحو ما نجد في العربية ، ومثال ذلك (بَيْتُمْ) المقابلة لبيت في العربية حيث تبدو الضمة مشيرة إلى الرفع وبيْتُمْ) بالكسر حيث تشير الكسرة إلى الجر و(بَيْتَم) بالفتحة التي تشير إلى النصب. ومثال آخر كلمة (كَلْبُمْ) المقابلة لكلمة (كلب) في العربية، وهذا هو شكل الكلمة بالرفع وتوجد أيضا (كَلْبِم) المجرورة و(كَلْبَم) المنصوبة . وعندما نقارن الأسماء الاكادية مثل (كلبم) و(بيتَم) بمقابلاتها العربية نلاحظ فيهما ميمًا نهائية كلاحقة مناظرة للتنوين في العربية، أو بعبارة أخرى للنون الدالة على التنكير .

ورغم هذه المشابهة اللافتة للنظر بين الميم الاكادية والنون العربية الا أن بعض العلماء يشكون في تماثل لاحقة الميم الاكادية بنون النكرة ، وذلك لأن وظيفة هذه الميم لم تكن واضحة لمدة طويلة ، فيتوهم البعض أن الميم النهائية في الاكادية ليست ذات فائدة نحوية مقابلة لنون النكرة حيث لا يوجد في الاكادية شكل خاص بالاسم المعرف وشكل آخر خاص بالاسم النكرة، فبدل مثلا (بيتَم) على المعرفة أي البيت كما يدل على النكرة أي بيت دون اختلاف في الشكل . وظاهرة عدم وجود أي اختلاف بين المعرفة والنكرة من جهة الشكل موجودة في عدد كبير من اللغات ، خاصة في اللغات القديمة المندثرة مثل اللاتينية والهندية. العتيقة (السنسكريتية) والفارسية القديمة التي الفت بها الكتب الايرانية المقدسة ومن ذلك أيضا اللغة الروسية المعاصرة . ولنأخذ على سبيل المثال الكلمة اللاتينية Homo التي تدل على النكرة أي « إنسان » كما تدل على المعرفة أي « الانسان » دون أي تغيير صرفي بينما نفرق في الفرنسية المنحدرة من اللاتينية بين un homme أي إنسان و l'homme أي الانسان، فنرى أن عدم وجود الفرق بين المعرفة والنكرة في شكل الاسم الاكادي ليس من الأشياء العجيبة .

ويميل العلماء حديثا إلى الظن بأن وظيفة لاحقة الميم في الاكادية كانت علامة للمفرد فدلّت (بيتم) بالميم على المفرد أي البيت أو بيت ودلت (بيتو) بلا ميم على الجمع أي البيوت أو بيوت ، ويتضح من ذلك أن نون النكرة العربية ترجع إلى الميم الاكادية التي كانت في الاصل علامة للمفرد ، وذلك لأن لهذا التطور من علامة المفرد إلى أداة للتنكير أمثلة مطابقة في كثير من اللغات منها الفرنسية التي لها أداة للنكرة هي un للمذكر و une للمؤنث ، وترجع علامة النكرة الفرنسية إلى اسم العدد اللاتيني unus التي معناها الواحد، ومنها الألمانية أيضا حيث تدل الكلمة نفسها على الواحد كما تدل على النكرة .

أما بالنسبة لاعراب الاسم وهي الظاهرة النحوية التي تعتبر دليلا على أصالة العربية فنرى أن العربية ليست اللغة السامية الوحيدة التي تحتوى عليه ، بل نجده في الاكادية والاورجارية أيضا الا أن الاعراب الاكادي كان ظاهرة اغوية حية في مرحلتها الأولى فقط ثم فقدت الاكادية الاعراب خلال عبورها إلى المرحلة الثانية التي نشأت فيها اللغتان : الاشورية والبابلية ، واصبح أبناء البابلية والاشورية خاصة الكتّاب منهم يعتبرون الاعراب في لغتهم ظاهرة خاصة باللغة الأدبية التي يستخدمونها للتدوين ، بينما تخلصت منه اللغة الدارجة ، ولذا لم يتقن الاعراب الا المثقفون منهم المتبحرون في اللغة العتيقة وإن كانوا يخطئون فيه أيضا. وبعد فترة طويلة أو قصيرة نسي أولئك الكتّاب الاشوريون والبابليون قواعد الاعراب تماما فظنوه زينة غير مفيدة للغة وصاروا يزودون الأسماء به دون نظام نحوي . وبالنظر إلى تاريخ اللغات السامية فإنه من الجدير بالذكر أن العربية التي دخلت التاريخ في القرن الخامس الميلادي قد حافظت على ظاهرة الإعراب بينما كانت الأكادية قد فقدته قبل الميلاد بألفي عام .

لقيت القبائل السامية التي دخلت ما بين النهرين في منتصف الألف الثالث كثيرا من المجالات الحضارية غير المعروفة لديهم فأخذوا يقبلون بعضها ، ولم يكن تقبلهم مقتصرًا على المكتسبات المادية فقط بل أخذوا من العادات

الاجتماعية واللغوية أيضا ، وبعد زمن قليل نسبيا صارت الوعود السامية — وهم الذين نسميهم بالاكاديين — تعتاد على نمط النطق السومري ، ونتيجة لذلك أبدل أبناء الاكادية الأصوات المنطوقة بين الأسنان التي لاتجهلها السومرية إلى أصوات نظيرة لها وهي أصوات الصغير فصاروا ينطقون الثاء شيئا والذال زايا والطاء صادا ونطقوا مثلا (شُورُم) المقابلة للثور في العربية أو (صِلْم) المقابلة للظل ، وفقدت الاكادية بسبب تأثير السومرية فيها بعض الفونيمات الخاصة باللغات السامية والتي بقيت موجودة في العربية وهي الأصوات الحلقية الهمزة والحاء والعين والغين ، ولم تختف هذه الفونيمات تماما بل تركت آثارا صوتية في نطق الكلمات التي كانت تحتوي عليها من قبل ، فقد ابدلت الفتح إلى ما بين الفتح والكسر أي (e) بجوار الهمز والعين والغين والحاء أو بعبارة أدق امالت الهمز والعين والغين والحاء من الفتح إلى الكسر قبل اختفائها وبقيت امالة الفتح بعد فقدان هذه الأصوات الحلقية فقالوا مثلا (ريشُم) بدلا من (رَاشُم) الأصلية المقابلة لكلمة (رأس) في العربية أو (إرِشُم) بدلا من (غَرِشُم) الأصلية المقابلة لكلمة (غرب) في العربية. ومن الجدير بالذكر هنا أن الأكادية التي هي بالنسبة لظاهرة الاعراب في منزلة العربية قد انحرفت في ميدان الأصوات عن الأصل واقتربت من المرحلة التي تقوم الفينيقية أو العبرية عليها .

ولتحديد منزلة العربية في اطار اللغات السامية نلقى نظرة على اللغة الاوجاريتية وهي من أقدم اللغات السامية أيضا . لقد عثر علماء الآثار خلال حفرياتهم في راس شمرا بالقرب من ساحل الشام على آثار مدينة قديمة كان اسمها أوجاريت واكتشفوا هناك مجموعة كبيرة من الواح فخارية مكتوب عليها بخط تشبه رموزه رموز الخط المسماري البابلي أو الاشوري من حيث الشكل الظاهر ألا أن الخط الذي دونت به الكتابة الاوجاريتية والنصوص الاوجاريتية كان مختلفا عن نظام الخط المسماري البابلي اختلافا تاما ، وقد

تبين هذا الأمر على الفور قبل فك أسرار هذه الرموز . يشتمل الخط المسماري الاوجاريتي على واحد وثلاثين رمزا بينما كان عدد الرموز المسمارية البابلية أو الاشورية أكثر من مائتين ، ويقوم الخط الاوجاريتي على أساس النظام الابجدي ويشابه الخط المسماري من جهة الشكل الظاهر فقط إلا أن له ميزة يتميز بها عن جميع الخطوط الابجدية السامية الأخرى ما خلا الخط الحبشي ، فالخط الأوجاريتي يملك ثلاثة رموز دالة على مقطع مركب من صامت ومتحرك - وكان هذه الميزة بقية النظام الكتابي المقطعي الخاص بالخط المسماري الاكادي - والرموز الثلاثة الدالة على الصامت المتحرك هي الرموز المعبرة عن الهمزة ، فيعبر أولها عن الهمزة المفتوحة والثاني عن الهمزة المكسورة والثالث عن الهمزة المضمومة . وكلما وجد أحد هذه الرموز أحاطنا بذلك علما بالحركات في اللغة الاوجاريتية .

وان المعلومات التي تمدنا بها هذه الرموز لا يمكن أن يبالغ في تقديرها مهما قلنا، فمنها نستطيع أن نعرف أن عدد الحركات يقابل عدد الحركات في العربية تماما ويستفاد من الأسماء الاوجاريتية المتضمنة إحدى الهمزات - عندما يكون الهمز آخر حرف في الكلمة - بأن هذه اللغة التي كانت دارجة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر قبل الميلاد ملكت ظاهرة الاعراب على نحو ما نعرفه في العربية والاكادية ، فهناك مثلا كلمة (كسىء) المقابلة لكلمة (كرسى) في العربية وهي لا تخلو في آخرها من إحدى الهمزات الثلاث فيدل الهمز المضموم على الرفع الذي يأتي مبتدأ أو فاعلا والهمز المفتوح الذي يدل على النصب الذي يأتي مفعولا به ونجد في نص من النصوص الاوجاريتية عبارة (تحت كسىء) أي تحت الكرسي حيث يدل الهمز المكسور على الجر . ولو أردنا وصف اللغة الاوجاريتية من حيث أكثر ملامحها ظهورا قلنا إنها لغة جاء بها اسلاف القبائل العربية حين وفدوا إلى تلك المناطق الشامية ، لأن اللغة الاوجاريتية أقرب اللغات السامية نحوا وصرفا من العربية ، ولكن هذا لا يعني السكوت عن بيان

اختلافاتها عن العربية ومن أهمها عدم وجود أي أداة دالة على النكرة أو المعرفة ، فتدل الكلمة المذكورة (كسئء) على النكرة أي كرسى كما تدل على المعرفة أي الكرسى دون أي فرق بين الاسم المنكر والاسم المعروف وهي نفس الظاهرة التي عثرنا عليها في الأكادية حيث لا يعرف الاسم أشكالا مميزة للنكرة من المعرفة أيضا وهذا بلا شك هو الوضع الاصلى للغات السامية .

ان دراسة اللغات السامية ميدان واسع ، ولذا فمن غير الممكن في هذا المكان المحدود أن نتناول إلا القليل من المسائل المتعلقة بالتساؤل عن منزلة العربية أو مكانتها بين اللغات السامية الأخرى ، ويكفي هذا البحث القصير لكي نرى أن العربية من أكثر اللغات السامية اصالة حتى بالنسبة للغات التي هي أقدم منها بكثير .

فولف ديتر ش فيشر